خيال الشاعر

بين الطبع والصنعة

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لعل من الفضول أن يقول قائل : إن الشاعر يتكىء أكثر ما يتكىء فى فنه على الخيال . أما العالم فوجهه كله إلى الحقائق مادية كانت أو معنوية ، ذاتية كانت أو نسبية . نعم لقد يكون هذا من فضول الكلام إذا قُرر لذاته . ولكنه يرتفع عن هذا الموضع إذا سيق لتوجيه بعض القضايا التى قد تدق على كثير أو على قليل من الأفهام . ولعل الموضوع الذى نعالجه اليوم من هذا الطراز .

وبعد ، فاذا كان شعر الشاعر إنما يتكىء أكثر ما يتكىء على الخيال ، فاعلم أن هذا الخيال مهما غلا ، ومهما حلّق وارتفع ، ومهما استحدث واخترع ، ومهما لوّن من الألوان وشكّل من الأشكال — فانه مُستمدٌّ فى تصرّفه جميعه من الحقائق الواقعة . مبتدئٌ لا بد بها ، منتهٍ لامفرّ فى النهاية إليها . فمن الحقائق الواقعة مادته ، وهى مُستعارُه فى كل ما سوّى وفى كل ما صوّر وشكّل ولوّن .

وذلك بأن الانسان مهما رُزق من شدة العقل وأوتى من قوة الخيال ، لايستطيع أن يتصوّر شيئاً لم يقع عليه حِسُّه . وكيف له بهذا والحسُّ وحده هو السبيل لاسبيل غيره إلى إدراك الانسان ، وإلى إدراك الحيوان . فدُنيا الحيوان هى ما يحيط به ويشهده فى مضطربه لا أكثر ؛ ودُنيا الانسان فى الواقع ، هى ما يرى وما يسمع ، وما يدرك من الحقائق بسائر الحواسّ الأخرى ، وليس يعدو العلمُ من طريق القراءة حاستى السمع والبصر . بل إن هذا الانسان نفسَه لو قد كُفَّ من أول مولده فى محبِس لما قدّر أن دنياه شئ غير ما هو فيه ، وما يتصل من الأسباب بما هوفيه ، ولقد يعمد ذهنه إلى التقصي ، ولقد يتبسّط فى القياس ، ولقد يذهب فى إدراك ما لم يشهد إلى قريب أو إلى بعيد ، ولكنه فى النهاية لن يقع على جديد لا يتصل بمحيطه ، ولا يرتبط بأسبابه (١) .

* * *

لك الحق بعد هذا الكلام أن توجه هذا السؤال : إذا كان الخيال لا يمكن أن يعدو الواقع الذى يُدركه الحس . فما الفرق بينه وبين الحقيقة ؟ أو ما الفرق بين أخيلة الشعراء وبين حقائق العلماء ؟

لقد توجه ، بادئ الرأى ، هذا السؤال ، على أنك لو فكّرت وتدبرت لبان لك الفرق بينهما دون جُهد فى التفكير والتدبير : فالعالم إنما يطلب الحقيقة كما هى ، سواء أكان ذلك بأخذها كما قررها مقرروها ، أو باستظهارها ، أو باستكشافها ، أو نحو ذلك من وسائل إصابتها والتهدّى إليها . أما الخيال فانه يعمد إلى الحقائق الواقعة فيتناولها بالتأليف والتلفيق ، ويأخذها بالتشكيل والتلوين ، حتى تستوى له منها صورةٌ تواتم فى قوتها وروعتها وتناسقها حظ مسوّيها من قوة التخييل ، وجودة الصنعة ، ودقة الذوق . والعكس فى العكس .

فقد بان لك أن الصورة التخيّلة مهما غلا فيها صاحبها وأطرف ، ومهما أبعد بها عما طالعه الفكر ، فانها مشكّلة من حقيقة واقعة ، أو ملفقة من حقائق واقعة . ولست أصيب مثلاً لتوضيح هذا الكلام أحسن مما أجراه أصحاب المنطق من التمثيل للممكن العقلى (المستحيل الوقوعى) بقيام جبل من الذهب ، وتموّج بحر من الزئبق . فذلك وإن كان غير واقع بالفعل ، إلا أنه مما يمكن إيقاعه فى الذهن بالتلفيق والتشكيل : فالجبل موجود والذهب موجود . والبحر كائن والزئبق كائن . وكل سعى الخيال فى تجلية مثل هذه الصورة هو استعارة هذا المعدن لذلك الجرم ، فيكون جَبَل الذهب ، ويكون بحر الزئبق .

كذلك تستطيع أن تفرق بين الشاعر والعالم ، بأن الشاعر فى الجملة ، مُعطٍ ، أما العالم ، فى الجملة ، فآخذ : الشاعر يبتكر ويستحدث بقلب الحقائق ، والتلفيق بينها ، وإفراغها فى غير صورها ، وتلوينها بغير ألوانها . أما العالم فأبلغ جهده فى تلقى الحقائق . فاذا كان له فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما

(١) سبق للكاتب أن ألم بهذا المعنى إلماماً يسيراً فى بعض ما كتب من الرسائل

انكشف له فيها من الآثار ، وما جُلي عليه من مكنون الأسرار .

* * *

ولقد علمت أن الشاعر إنما يتكىء فى فنه أكثر ما يتكىء على الخيال ، حتى لقد ذهب أكثر النقدة الى أنه ليس شعراً ذلك الكلام الذى يجرى فى الحقائق المجرّدة ، وإن كان مقفى موزوناً . ولقد عرفت أثر الخيال فى تلفيق الحقائق وتزييفها ، وطبعها على غير صورها الواقعة . لهذا نفى الله تعالى أن يكون كتابه الحكيم شعراً ، ونفى أن يكون رسوله الكريم شاعراً : (وَمَاهُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) . (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ) ردَّ جلّ مجده بهذا وبغيره دعوى الكفار من أن القرآن شعر ، على معنى أنه من تلفيق الخيال وتزييفه ، كما ردَّ دعواهم بأنه سحر ، والسحر ما يوارى حقائق الأشياء ، ويجلوها على صور تتمثل للأوهام بخداع الأسماع والأبصار : (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ) . (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) . إنما الكتاب كله حق وصدق ومنطق صحيح (لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) . (إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ) . وهذا هو الأليق بحجة الرسالة ، وآيات الله المُعْلِمة على طريق الهدى وعلى طريق الضلالة .

* * *

ومن البديه أن الشعراء لا يطلقون أخيلتهم فى فنون المعانى لمجرد العبث بقلب الأوضاع ، ومسخ الأشكال ، والتلفيق بين الحقائق . إنما الغاية كل الغاية أن تجلو عليك هذه الأخيلة صوراً طريفة بديعة لهذا الذى أدركته من الواقع ، أو تترجم لك عما يند عن فهمك من معانيه ومغازيه ، أو تكمل لك وتبسط بين يديك ما ترى أن الطبيعة قد قصرت فيه وانقبضت دون حبكه وتسويته ، ونحو هذا مما يُرهف الحسّ ، ويُمتع النفس بطالعة صورة من صور الجمال الفنى فى أى وضع من أوضاعه ، وعلى أى شكل من أشكاله .

ولاشك فى أن أبدع هذه الصور وأروعها ، وأذكاها للحسّ ، وأجلها موقعاً من النفس ، هى أدقها حبكاً ، وأحكمها سبكاً ، حتى إذا طالعتها التبست عليك بالحقيقة ، أو إنها لتكاد . وهنا تتفاوت منازل الشعر بتفاوت الشعراء فى قوة التخيل ، ورهافة الحسّ ، ودقة الصياغة ، وبراعة الأداء .

وفى هذا المقام يجمل أن نوضح معنى لعله يحتاج عند الكثير الى التوضيح . قال المتقدمون : إن أعذب الشعر أكذبه . وهذا كلام صحيح إذا اتجه على أن أعذب الشعر ما كان من نسج الأخيلة لا ماوقع على مجرد تقرير الحقائق الثابتة . ولكننا إذا تحولنا بالنظر الى ناحية أخرى من نواحى هذا الموضوع رأينا كذلك أن أعذب الشعر أصدقه : ولسنا نعنى بالصدق هنا المطابقة للواقع ، على تعريف أصحاب المنطق ، وإنما نريد به الصدق فى الترجمة عن شعور الشاعر . فأعذب الشعر فى الواقع هو الذى ينفض عليك ما يعتلج فى نفس الشاعر ، وما يتمثل لحسه فى إدراكه للأشياء .

ولا يذهب عنك أننا نحن سوادَ الناس تعرض لنا الأشياء فندركها ، فى الغالب ، كما هى ماثلة لأعياننا أو لأذهاننا . وهذا الادراك لا يتعدى ظاهر الصور ، أما الشاعر ، وأعنى به من يستحق هذا الاسم ، فله نظرة نافذة فى مطاوى كثير من الأشياء ، تسلكها دقة حسه ، وهنا يتقدم خياله السرىّ فيسوّى منها صورة جميلة بارعة . فاذا واتته قدرة النظم ، فأداها كما أدركها ، وجلاها كما تمثلت له ، خرجت على حظ من الاحسان والاجمال يوائم حظه من قوة الخيال ، ودقة الذوق ، وحسن الأداء .

والشعر الذى تتوافر له هذه الخلال هو الشعر الذى يروعك ، ويصقل حسك ، وقد يغمز على كبدك ، لأن الشاعر قد رفعك به إلى نفسه ، فأشهدك مالم تكن تشهد ، وكشف لك من دقائق الأشياء عما لم تكن ترى ، وبعث عاطفتك فحلّقت فى عالم الروح كل محلّق ، وترقرقت فى سرحات الجمال كل مترقرق .

وأعود فأقول لك : إن الصورة الشعرية ، فى هذه الحالة ، وإن كانت خيالاً فى خيال ، إلا أنها لقوة موقعها ، ودقة صنعها تشبه عندك الصور الواقعة ؛ بل لقد تلتبس عليك بالحقائق الثابتة . وكيف لا يكون لها فى نفسك هذا الأثر ، وهى نفسها قد تمثلت لأدراك الشاعر واضحة سوية ، فى غير تعسر ولا تعمل ، فتفضّاها فى الشعر عليك كما تراءت لذهنه ، وتمثلت لحسه .

أرجو أن يكون قد صح عندك الآن أن أعذب الشعر ، من هذه الناحية ، أصدقه لا أكذبه

الصناعة الشعرية :

ولست أعني بالصناعة هنا إلا صناعة الخيال . فانه إذا كانت الصناعات البديعية ، لفظية وغير لفظية ، قد أساءت إلى الشعر العربي إساءة بالغة ، فان الصنعة الخيالية لقد كانت في الأساءة أشد وأبلغ . وتلك أن الشاعر أو من يتصدى لقرض الشعر ، على العموم ، لا يشعر شيئاً ولا ينفذ حسه إلى شيء . فيبعث خياله من مجثمه ، ويستكرهه استكراها على أن يصنع له صورة شعرية ، فيمشي متعثرا هاهنا وهاهنا في الارتياد لما عسى أن يسنح له من المعاني واقعة حيث وقعت . حتى إذا لاح له شبحها شكها ولو لم يتبين شخصها . ثم جعل يعالجها بالترويض والتذليل ، ويضيف اليها ما ظنه من جنسها ، أو ما حسبه مما يلابسها . ويطبع من هذه الأمشاج صورة شعرية (والسلام) ، صورة لا الشاعر أحسها من أول الأمر أو تذوقها ، ولا من يقرؤه شعر بالألف لها ، أو ذكا حسه بها .

وهذا الخيال المصنوع المتمحل المجهود به ليس من الشعر في كثير ، وهذا على أرفق تعبير . بل إنه لأشبه بصنعة النجار أو الحداد في بسائط المصنوعات . بل إنه كثيراً ما تخرج الصورة الشعرية ملتوية شائهة ، تخفى معارف وجهها على ناظمها فكيف بقارئيه ؟ وعلى عيني أن أقول إن شيئاً من هذا يقع في بعض ما نقرؤه من شعر هذه الأيام ! .

ودعنا من الحديث الآن حتى نفرغ من شأن القديم . وخبرني بعيشك أي شيء هذا الذي ساقه علماء البلاغة شاهداً على حسن التعليل ! .

لو لم تكن نيةُ الجوزاء خِدمتَه
لمّا رأيتَ عليها عِقــــد منتطق

وقول الآخر في هذا الباب أيضاً .

لم تحك نائلكَ السحابُ وإنّما
حُمّت به فصبيبُها الرُّحَضاء[(١)]

اللهم أفكان من السائغ في العقل أو في الذوق أو في الخيال أن نظرة الشاعر للجوزاء تحيط بها دقاق النجوم لم تلهمه إلا أنها إنما تمنطقت لتقوم على خدمة ممدوحه ؟

وهل كان من السائغ أن نظرة ثاني الشاعرين في السحاب وهي تهمي ، لم تشعره إلا أنها غارت من كرم ممدوحه لقصورها عن مجاراته ، فأخذتها الحمى ، فلم يكن ماتسُح به إلا من عرَقها !

اللهم أشهد إن هذا وهذا كلام بارد مليخ ، وهذا وهذا من الخيال الفسْل السخيف ! .

وبعد ، فهذه فسولة الكلام وسخفه إنما ترجع في قرض الشعر في الجلة ، الى أحد شيئين : إما لأن الناظم لا طبع له ولا شاعرية فيه ، فهو يتصيد الخيال تصيداً ويصنعه صنعاً ، ليجيء بنحو ما يجيء به الشعراء ، وإما للرغبة في شدة المبالغة ، والايفاء على الغاية من المديح ونحوه ، فيسفّ الشاعر ويسخف ، ويأتي بمثل هذا الهذيان الذي أتى به ذانك الشاعران . الى أن طبيعة هذه الموضوعات ليس فيها مجال عريض لشعور صحيح ، ولا لخيال واضح صريح : والحمد لله الذي عفّى على كثير من هذا الأدب في العصر الذي نعيش فيه

وانظر ، بعد هذا ، كيف يقول زهير بن أبي سُلمى في مدح هَرِم بن سنان ووصف كرمه ، وكيف ، على أنه غلا في ذلك أشد الغلوّ ، أتى لهذا الكرم بصورة قوية مسبوكة سائغة .

قد أحدث المبتغون الخير من هَرِم
والسالكون الى أبوابه طُرُقا
من يلقَ يوماً على عِلاّته هَرِما
يلق السماحة منه والنــدى خُلُقا

وذلك لأن ممدوحه كان جواداً حقاً ، وأنه هو تأثر بشدة جوده حقاً ، وهو الى هذا شاعر فحل ، خصب الذهن سريّ الخيال ، فلم يتمحل ولم يتعسف ، بل لقد انتضح شعره بالصورة التي جادت بها شاعريته فجاءت ، على إمعانها في الغلو ، سائغة مسبوكة لا نشوز فيها على الأذواق . وهذا هو الفرق بين الخيال المطبوع ، وبين الخيال المصنوع .

* * *

ولقد عرض ذكر الذوق في بعض هذا الحديث . وللذوق محله غير المنكور في الشعر وفي غير الشعر . ولقد كان ينبغي أن نفصّل القول فيه بعض التفصيل لولا أن طال بنا الكلام . فلنرجيء هذا الى مقال آخر ؟

عبد العزيز البشري

(١) يقال رحُض المحموم : أخذته رُحَضاءُ الحمّى ، وهي عرقها .